شرح

القواعد المثلى

في صفات الله وأسمائه الحسنى

محمد بن صالح العثيمين

– رحمه الله تعالىٰ –

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النسخة الإلكترونية الثانية

www.ajurry.com

[الشريط الثامن]

أعدّ هذه المادة
سالم بن محمد الجزائري

بسم الله الرحمـــٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين؛ نبينا محمد، وعلىٰ آله وأصحاب أجمعين.

وصلنا إلىٰ القاعدة الرابعة من القواعد المختصّة بالصفات.

[المتن]

القاعدة الرابعة: الصفات الثبوتية صفات مدحٍ وكمال.

فكلما كثُرت وتنوّعت دلالاتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر؛ ولهـــٰذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية كما هو معلوم.

أما الصفات السلبية فلم تُذكر غالبا إلا في الأحوال التالية:

الأولىٰ: بيان عُموم كماله كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورىٰ:١١]، ﴿وَلَـــمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾[الإخلاص:٤].

الثانية: نفي ما ادّعاه في حقّه الكاذبون كما في قوله: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾[مريم:٩١-٩٢].

الثالثة: دفعُ توهُّم نقص من كماله فيما يتعلّق بهـــٰذا الأمر المعيّن كما في قولـــه: ﴿ وَمَـــا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨)﴾[الدخان:٣٨]، وقوله: ﴿ وَلَقَـــدْ خَلَقْنَـــا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾[ق:٣٨].

[الشرح]

قال المؤلف رحمه الله: (**القاعدة الرابعة**) أي: من القواعد المتعلقة بالصفات (**الصفات الثبوتية صفات مدحٍ وكمال. فكلما كثُرت وتنوّعت دلالاتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثـــر؛ ولهـــٰذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثرَ بكثير من الصفات السلبية كمـــا هو معلوم.**)

سبق في القاعدة السابقة أن ذكر المصنف -رحمه الله- أن الصفات تنقسم إلىٰ قسمين: صـــفات ثبوتية وصفات سلبية. وذكر حد كل قسم من هـــٰذين القسمين، وذكر الدليل الســـمعي والعقلـــي عليهما، وذكر أيضا بعض الأمور المتعلقة بهـــٰذا التقسيم.

ثم بين هنا في هـٰذه القاعدة أن الصفات الثبوتية كلها صفات مدح وكمال، يُمدح بها الموصوف ويُثنىٰ عليه بها، ويَجْمُل التفصيل في عدِّها وذِكر أفرادها، ولهـٰذا كلما كثرت و تعددت كثر الكمال وعظم الكمال، والصفات الثبوتية كلها صفات مدح وكمال، ولهـٰذا يحسن التفصيل في عـدِّها بخلاف الصفات السلبية؛ فإن الأوْلىٰ أن يؤتىٰ بها مجملة.

ولهـٰذا هـٰذه القاعدة التي يذكر الشيخ –رحمه الله– تأتي بيانا لسبب كثرة التفصيل في الصفات الثبوتية في القرآن، بينما الصفات السلبية الغالب أنها تأتي علىٰ وجه الإجمال، تفصيل في الإثبات وإجمال في النفي، فالغالب في آيات الصفات أنها علىٰ هـٰذا الوصف، وإن شئت قل: إثبات مفصّل ونفي مجمل. هـٰذه طريقة القرآن في الصفات غالبا، وإلا فإنه قد يأتي الإثبات مجملا، وكذلك قد يأتي النفي مفصَّلا علىٰ خلاف القاعدة.

ومن أمثلة إتيان الإثبات مجملا قوله تعالىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾،[1] والحمد ثناء علىٰ الله –عز وجل– مع حبه لكمال أسمائه وعظمة صفاته؛ لأنه يُحمد علىٰ أسمائه وصفاته، ولهـٰذا قيل في الحمد: إثبات الصفات؛ في حمد الله إثبات صفاته، وهـٰذا الإثبات مجمل.

وقد يأتي النفي مفصلا بينما الغالب والأصل أن يكون النفي مجملا؛ لكنه قد يأتي للسبب وسيذكر الشيخ ذلك، قد يأتي مفصلا مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾[ق:٣٨]، مس اللغوب هـٰذا نفي مفصل وليس نفيا مجملا، كذلك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾[فصلت:٤٦]، هـٰذا نفي مفصل، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾[المؤمنون:٩١] هـٰذا نفي مفصل، يأتي النفي المفصل؛ لكن الغالب علىٰ النفي إتيانه مجملا والإثبات إتيانه مفصلا؛ لأن أبلغ ما يكون في المدح والثناء التفصيل في الإثبات والإجمال في النفي، ولو عُكست القاعدة لكان الكلام أقرب إلىٰ الذم منه إلىٰ المدح والثناء، فلو كان تفصيل في النفي وإجمال في الإثبات لكان الكلام حينئذ أقرب إلىٰ الذم، ومقام المدح والثناء إنما يقتضي التفصيل في الإثبات والإجمال في النفي؛ إلا إذا وجد سبب فإنه يفصَّل في النفي لذلك السبب.

---

[1] سورة: الفاتحة الآية (٢)، يونس الآية (١٠)، الزمر الآية (٧٥)، غافر الآية (٦٥).

قد قال العلماء: إن التفصيل في النفي، والإجمال في الإثبات الذي عليه أهل الكلام، وهو عكس طريقة القرآن، هـٰذا أشبه ما يكون وأقرب ما يكون إلىٰ الذم.

مثل: لو أن إنسانا أراد أن يثني علىٰ شخص كبير، أو مسؤول كبير، وأراد أن يمدحه، ففصل في النفي؛ يعني فصل في نفي النقائص عنه، وأجمل في الإثبات؛ وأجمل في ذكر المدائح، كيف يكون الكلام؟

فقال في ثنائه عليه: أنت ليست بالوسخ، ولا بالقذر، ولا بالدنيء، ولا بالخسيس، ولا بالحقير، ولا بكذا؛ فصل في النفي، وفي الإثبات أجمل قال: وفيك خير.

كيف يكون هـٰذا الثناء؟ هو إلىٰ الذم والنقيصة أقرب منه إلىٰ المدح والثناء.

هـٰذه الطريقة المذمومة هي التي عليها أهل الكلام في وصف الرب، يفصلون في النفي ويجملون في الإثبات، يفصلون في النفي، ولهـٰذا في كتب المتكلمين تجد النفي بالصفات: الله ليس بكذا، وليس بكذا، ينفون عنه ما لا يليق به، وفي الوقت نفسه ينفون عنه ما يليق به، من شدة إمعانهم وإفراطهم في النفي تفصيلا، ولهـٰذا يقولون: لا فوق، ولا تحت، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلا به ولا منفصلا عنه، ولا محايكا له ولا مباينا له، وليس بذي لون، وليس بذي طعم، وليس بذي رائحة، أشياء مستهجنة غاية، وما كان فيها من نفي صحيح يغني عنه قوله تعالىٰ: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشورى:١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)**﴾[مريم:٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿**فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً**﴾[البقرة:٢٢]، فهـٰذا يأتي علىٰ كل نقص، ويغني عن كل تفصيل، وما كان فيها من نفي لمعنىٰ حق ومعنىٰ صحيح كما في علوه أو نفي غير العلو من صفاته -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- فهـٰذا باطل، ولا ينفىٰ عن الله ولا يتره الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- عما يليق به من صفات الكمال ونعوت الجلال، وإنما يتره -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- عن النقائص والعيوب.

إذن طريقة القرآن تفصيل في الإثبات، وإجمال في النفي، وهـٰذا هو الغالب الأعم؛ ولكن قد يأتي الإثبات مجملا، وقد يأتي النفي مفصلا، وسيذكر الشيخ -رحمه الله- وجه إتيان النفي مفصلا علىٰ خلاف القاعدة، سيذكر سبب ذلك.

قال: (**الصفات الثبوتية صفات مدح وكمال**) الصفات الثبوتية صفات مدح وكمال، ونفي الصفات السلبية هل هو مدح وكمال أو ليست مدحا وكمالا لله عز وجل؟ لعلكم تذكرون آخر القاعدة السابقة عندما تكلم الشيخ -رحمه الله- عن الصفات السلبية؛ حين ذكر أن الصفات السلبية

فيما يتعلّق بالرب العظيم -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ليس النفي فيها صرفا خالصا، وإنما هو نفي تضمّن إثبات كمال الضد، ولو لم يكن هـٰذا النفي متضمنا لمعنىٰ ثبوتيًّا لما عُدَّ كمالا؛ لأن النفي المحض عدم ليس بشيء، وما ليس بشيء ليس بشيء، فضلا علىٰ أن يعد كمالا.

ولهـٰذا قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾[فصلت:٤٦]، لو لم تكن هـٰذه متضمنة ثبوت كمال عدله لم تكن مدحا، وكذلك ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾[ق:٣٨]، ولو لم تكن متضمنة ثبوت كمال قوته لم تكن مدحا، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾[البقرة:٧٤] لو لم تكن متضمنة ثبوت كمال علمه لم تكن مدحا.. وهكذا، ولهـٰذا الصفات السلبية إنما كانت مدحا من جهة ما تضمّنته من ثبوت الكمال، ما تضمنته من المعنىٰ الثبوتي في حق الرب -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ولو لم تتضمن ذلك لم تكن مدحا، ولهـٰذا قد يُنفىٰ عن الشيء أمر من الأمور لعدم قابليته له، وقد ينفىٰ عنه لعجزه وضعفه وخوَره، فلا تكون في هاتين الحالتين مدحا، ولا يكون النفي مدحا إلا إذا تضمّن معنىٰ ثبوتيا، ولهـٰذا المدح والثناء في المعنىٰ الثبوتي الذي يوصف به الموصوف.

قال: (**فكلما كثُرت وتنوّعت دلالاتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر**) لاحظ معي مثالا على ذلك: آخر سورة الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَـٰهَ إِلاَ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَـٰهَ إِلاَ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾[الحشر:٢٢-٢٤]، هـٰذا تفصيل في الإثبات، ذُكر في هـٰذا السياق سبعة عشر اسما من أسماء الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وكلّها متضمنة معاني ثبوتية وصفات كمال لله -جل وعلا- تفصيل في الإثبات، والمقام مقام مدح وثناء وتعظيم لله -جل وعلا- وبيان لاستحقاقه للعبادة وتفرّده بذلك، وأنه لا شريك له فيها، فجاء تفصيل في الإثبات، وفي القرآن مثل هـٰذا كثير: تفصيل في الإثبات.

ولا تجد في مقام المدح والثناء تفصيلا في النفي إلا لسبب، يأتي بعض التفصيل في النفي لأسباب معينة ولأغراض معينة ذكرها العلماء، ولهـٰذا كلما تعدّدت الصفات الثبوتية كان أبلغ في المدح والكمال، وكلما كان الإجمال في النفي كان ذلك أبلغ في المدح والثناء.

مثال علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١١)﴾[الشورى:١١]، هٰذه الآية فيها إجمال في النفي وتفصيل في الإثبات، وفي الإثبات فصل فقال: ﴿السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ وفي النفي أجمل فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

قال: (**ولهٰذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثرَ بكثير من الصفات السلبية كما هو معلوم.**)، إذن الشيخ -رحمه الله- أجاب بهٰذه القاعدة عن سبب كثرة التفصيل في الإثبات والإجمال في النفي.

نحن قلنا: القاعدة في الغالب والأعم في آيات الصفات إثبات مفصل ونفي مجمل، ما سبب ذلك؟ هو ما ذكره الشيخ -رحمه الله- وهو أنّ الصفات الثبوتية صفات مدح وكلما تعددت وتنوعت كان ذلك أبلغ في المدح والثناء. هٰذه طريقة القرآن.

أما المتكلمون -أهل الباطل- فعكسوا الطريقة وكان كلامهم -كما أسلفت- أشبه ما يكون بالتنقص والذم، وأبعد ما يكون عن المدح والثناء.

قال: (**أما الصفات السلبية فلم تُذكر غالبا إلاّ في الأحوال التالية:**

الأولىٰ: بيان عُموم كماله كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورىٰ:١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾[الإخلاص:٤].) قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾. النفي هنا نفي مجمل وليس نفيا مفصلا، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ هٰذا نفي مجمل، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]، هٰذا نفي مجمل، كذلك قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾[مريم:٦٥]، استفهام بمعنىٰ النفي، وهو نفي مجمل؛ أي لا سميّ له، نفي مجمل، لأي شيء جاء هٰذا النفي المجمل؟ لبيان عموم كماله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- ، وهٰذا النفي المجمل الذي يشتمل علىٰ بيان عموم كمال الرب -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- يتناول كل فرد من أفراد الصفات بثبوت الكمال -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- ونفي المساوي والمماثل والنظير.

ولهٰذا أغنىٰ هٰذا الإجمال وكفىٰ ووفىٰ عن التفصيل، ولم يصبح المقام بحاجة إلىٰ الإتيان على كل صفة من الصفات بعينها مثبتة مع نفي المثلية؛ ولكن الإجمال يتناول الجميع، ويبين عموم كمال الرب -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في كل صفاته، فهو -عز وجل- في كل صفاته ليس كمثله شيء: لا سمعه، وفي بصره، ولا في علمه، ولا في إرادته.. ولا في أي صفة من صفاته، يدل علىٰ

هـٰذا العموم في الكمال والجلال والعظمة، عموم هـٰذا الإجمال، وعموم متناوله ليس كمثله شيء، وهـٰذا متناول لكل الصفات، لا مثل له -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في أي صفة من صفاته، لا مثل له، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾[الإخلاص:٤]، نفي الكفء، وهو المثيل والنظير، وهـٰذا أيضا يدل علىٰ عموم كمال الربّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وقد عرفنا في القاعدة السابقة لهـٰذه القاعدة أن النفي ليس صرفا، وهـٰذا يتناول النفي المجمل والنفي المفصل، فالنفي المجمل ليس صرفا، وكذلك النفي المفصل ليس صرفا، وإنما كل منهما متضمن لثبوت الكمال.

فالنفي المفصّل عرفنا من خلال بعض الأمثلة أنّ النفي فيها يتناول ثبوت كمال ضدِّها:

كمال العدل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾[فصلت:٤٦].

كمال العلم: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ﴾[البقرة:٧٤].

كمال القوة والقدرة والعلم: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾[فاطر:٤٤].

كمال القوة: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾[ق:٣٨].

هـٰذا في النفي المفصل.

والنفي المجمل كما في هذين المثالين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ ، وكذلك قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾[مريم:٦٥]، أيضا هو ليس نفيا صرفا، وإنما هو متضمن معنىٰ ثبوتيا، ما المعنىٰ الثبوتي؟ هو ما ذكره الشيخ لبيان عموم كماله، هـٰذا معنىٰ ثبوته، بيان عموم كماله، فنفىٰ عن نفسه المثلية لبيان عموم كماله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

إذا انتبهتم لهـٰذا التقريب، فإنا نستفيد منه فائدة عظيمة في الرد علىٰ المتكلمين، المتكلمون في نفيهم للصفات الثابتة لله علىٰ وجه التفصيل يتكئون علىٰ هـٰذه الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]، فينفون عنه صفاته علىٰ وجه التفصيل اتِّكاءً علىٰ هـٰذه الآية، ولهـٰذا تراهم في كتبهم: ينفون عنه اليد، والبصر، والقَدم، والاستواء، ينفون عنه الصفات نفيا مفصلا، ويذكرون دليل النفي: نفي المثلية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

ويقولون في تقريرهم الباطل: لو أثبتنا لله هـٰذه الصفات للزم التمثيل، والله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

يستدلون بالآية علىٰ نفي الصفات، ويتكئون عليها في نفي الصفات، مع أن الآية دلّت علىٰ ثبوت الصفات وتعدُّدها وكمالها، لا كما يقول هؤلاء، وتنبهوا لهـٰذا، الآية دلت علىٰ ثبوت الصفات وتعددها وكمالها؛ لأن كما مر معنا قبل قليل، ما معنىٰ ما المعنىٰ الثبوتي الذي دل عليه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]؟ ونحن عرفنا أنه ليس في النفي في الصفات ما هو نفي صرف، وعرفنا في ما يتعلق بالصفات التي نُفيت علىٰ وجه التفصيل ما الكمال الذي يثبت من نفيها.

هنا في الإجمال: ما الكمال الذي يثبت من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾:

هل هو كمال يختص بصفة واحدة معينة؟

أو أنه لا يختص بصفة ثبوتية؟

أو أنه لا هـٰذا ولا ذاك، وإنما أمر آخر، ما هو؟

إثبات الصفات، إثبات كمال الرب -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في عموم صفاته وجميعها، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ليس هـٰذا مختصا بصفة معينة، وإنما هو شامل لجميع الصفات ودال علىٰ كمال الرب -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في جميع صفاته، فالإجمال هنا -كما أسلفت- أغنىٰ عن التفصيل بأن نقول: ولا مثل له في سمعه، ولا مثل له في بصره، ولا مثل له في علمه، ولا مثل له في مشيئته.. إلىٰ آخر صفاته، أغنىٰ عن ذلك كله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، أي في كل صفاته، فأنت من خلال هـٰذا الإجمال في النفي أثبتّ لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- الكمال في كل صفاته، ولهـٰذا هـٰذه الآية دالة علىٰ كثرة الصفات وتعددها وكمالها، ودالة علىٰ كثرة الصفات وتعددها وكمالها، لا كما يقوله المبطلة: إنها دالة علىٰ انتفاء الصفات، وتأمل الآية بعد أن نفىٰ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- عن نفسه المثلية أثبت السمع والبصر، نفى عن نفسه المثلية المثيل وأثبت عقب ذلك مباشرة السمع والبصر قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١١)﴾[الشورى:١١]، قال العلماء: في إثبات السمع والبصر عقب نفي المثلية دليل علىٰ أن إثبات الصفات لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- علىٰ الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته لا يستلزم التشبيه.

ولهـٰذا اتكاء هؤلاء علىٰ هـٰذه الآية في نفي الصفات باطل، واستدلالهم بها علىٰ خلاف ما تدل عليه ونقيض مقصودها، والآية -كما هو واضح وظاهر وبين- تدل علىٰ كثرة صفات الرب -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وعلىٰ كماله وعظمته.

وهي جاءت في سورة الشورىٰ في بيان استحقاق الرب للعبادة، وأنه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وحده الذي يستحقّ أن يفرد بالعبادة، وذُكر في السورة من دلائل استحقاقه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- لأن يفرد بالعبادة دلائل كثيرة، ذُكرت دلائل، ومن ضمنها: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ ، لبيان أنه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- الكامل في صفاته الذي ليس في صفاته نقص؛ بل هي صفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، هـٰذا الذي يستحقّ العبادة.

فجاء المعطلة الذين لم يكن لهم من العبادة حظ؛ بل ليس لتوحيد العبادة في كتبهم ذكر، أتوا إلىٰ هـٰذه الآية، وجعلوها دالة علىٰ نفي الصفات -ومن ليس له صفة عَدم-، والعدم لا يتجه إليه ولا يقصد لا بعبادة ولا بذل ولا بخضوع، ولا يمكن أصلا أن يتجه إليه، يتجه إلىٰ ماذا؟ إلىٰ أي اتجاه؟ ولهـٰذا قال أهل العلم: المعطل يعبد عدما.

وبعض الجهمية الذين يقولون بالنفي المفصّل في بعض أحوالهم عندما يريدوا تعبدًّا وتذللا يقولون عن الله: إنه في كل مكان. وما يقال: إنه في كل مكان. له وجود ويُتَّجه إليه. ولهـٰذا في حال التعبد يقولون: الله في كل مكان. وفي حال البحث والنظر يقولون: لا فوق، ولا تحت، ولا داخل العالم، ولا خارجه. هـٰذا يفعله بعضهم.

ولهـٰذا قال شيخ الإسلام: قيل لبعضهم: ما هـٰذا التناقض؟ قال: ذاك مقتضىٰ نظري وهـٰذا مقتضىٰ ذوقي ووجدي؛ يعني إذا أردت النظر فمقام النظر يقتضي هـٰذا، وإذا أردت العبادة والتذلل فمقام العبادة يقتضي هـٰذا.

وكلا المقتضيين ضلال، لا مقتضىٰ نظرهم الفاسد، ولا أيضا تعبدهم الضال المنحرف، ولا يستقيم الحق إلا لمن نهج نَهج أهل السنة والجماعة في فهم صفات الرب -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- علىٰ الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه.

الشاهد أن قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾، هـٰذا يدل علىٰ ثبوت صفات الكمال لله -جل وعلا- وهو يدل علىٰ بيان عموم كمال الرب -جل وعلا- في كل صفاته، وهو يتضمن معنىٰ ثبوتيا متناولا لكل الصفات، وليس مختصا بصفة دون صفة.

إذن هـٰذا غرض من أغراض مجيء النفي في القرآن الكريم، وهو يتناول النفي المجمل.

قال: (**الثانية: نفي ما ادّعاه في حقّه الكاذبون كما في قوله: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾[مريم:٩١-٩٢].**) هنا لاحظ أن هذه الآية جاء فيها نفي مفصل، ألا وهو نفي الولد عن الله، هل هذا النفي للولد عن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- جاء ابتداء للثناء علىٰ الله -جل وعلا- به؟ أم أنه جاء ردا؟ جاء ردا لأنه قد وُجد من يدعي في حقه الولد، فرد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- علىٰ هؤلاء دعواهم الباطلة، ادّعىٰ اليهود أن له ولدا، عزير ابن الله، وادعىٰ النصارىٰ أن له ولدا، وادعىٰ المشركون أن الملائكة بنات الله، فلما وجدت هذه الدعوة جاء النفي في هذه الآية وفي قوله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)﴾، وفي آيات أخرىٰ، إذن مجيء هذا النفي المفصل له غرض وهو نفي ما ادعاه الكاذبون المبطلون.

ويأتي مثل هذا النفي ينسب أهل الباطل إلىٰ الله -عز وجل- ما لا يليق به فيتره -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- عنه، وتتريهه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- نفسه عما يقوله المبطلون تارة يأتي مفصلا كما في هذا المثال الذي ذكر الشيخ -رحمه الله-، وتارة يأتي مجملا كما في قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾[الصافات:١٨٠-١٨٢]، نزه نفسه عن كل ما يقوله المبطلون، من تنقُّص للرب ووصفٍ له بما لا يليق به، ومن تشبيه له -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- بمخلوقاته.

قال: (**الثالثة:**) أي الحال الثالثة (**دفعُ توهُّم نقص من كماله فيما يتعلّق بهذا الأمر المعيّن كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨)﴾[الدخان:٣٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾[ق:٣٨].**) هاتان الآيتان كلتاهما تتعلق بخلق السمٰوات والأرض، ففيهما نفي يتعلق بأمر معين، ألا وهو خلق السمٰوات والأرض علىٰ هذه الهيئة البديعة والكمال والحسن والبهاء والجمال والسعة وتنوع المنافع وما سخر فيهما، هذا الخلق البديع للسموات والأرض قد يتوهّم متوهم لضعفٍ فيه وقصور في فهمه أن خلقهما بهذه الصفة لا حاجة إليه، أو هو لعب، أو أن خلق السمٰوات والأرض بهذا الوصف وبهذا الكمال قد يكون أصاب من خلقها تعبٌ وإعياء، قد يأتي مثل هذا التوهّم إلىٰ بعض الأفهام القاصرة والضعيفة والرديئة.

فهنا يقول: الحال الثالثة دفع توهم نقص من كمال فيما يتعلق بهـٰذا الأمر المعين؛ يعني لئلا يتوهم متوهم ذلك نفاه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- فنفىٰ اللعب في خلقه السمٰوات والأرض والعبث، نفىٰ ذلك كله، ونفىٰ ذلك أيضا عن نفسه اللغوب، وهو التعب في خلقه للسموات والأرض.

فإذن هـٰذا غرض من أغراض النفي دفع توهم النقص؛ يعني ما قد يظنه الظان لرداءة فيه ونقص في فهمه، فنفىٰ الله ذلك دفعا لذلك التوهم، وقد يكون هـٰذا الذي ذكر الشيخ -رحمه الله- هو المقصود.

وقد يكون المقصود هو المعنىٰ الذي ذكر في الحالة الثانية ألا وهي نفي ما ادعاه الكاذبون، وقد ذكر بعض المفسرين أن قوله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾[ق:٣٨]. نزلت في شأن اليهود الذين ادعوا أن الله -عز وجل- لما خلق السمٰوات والأرض تعب، فأنزل الله تعالىٰ قول: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ ردا عليهم ونفيا لباطلهم وتنزيها -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- لنفسه عما ادعاه هؤلاء.

فإذا ثبت هـٰذا يكون غرض النفي كما هو في المثال أو في الحالة الثانية أيضا نفي اللعب عن الله قد يكون أيضا ردا علىٰ ما ادعاه الكاذبون ممن أعرض عن طاعة الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- وعن عبادته، وادعوا أن خلق السمٰوات والأرض ليس لغرض عبادة الله وتوحيده وإخلاص الدين له فناسب الرد عليهم بنفي اللّعب ونفي خلقها باطلا أو عبثا، فقد يكون الغرض هنا نفي ما ادعاه الكاذبون، وقد يكون لدفع توهم النقص.

[المتن]

القاعدة الخامسة: الصفات الثبوتية تنقسم إلىٰ قسمين: ذاتية وفعلية:

فالذاتية هي: التي لم يزل ولا يزال متّصفا بها كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعزّة، والحكمة، والعلو، والعظمة؛ ومنها: الصفات الخبرية: كالوجه واليدين والعينين.

والفعلية هي: التي تتعلّق بمشيئة إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها كالاستواء علىٰ العرش، والنزول إلىٰ السّماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام فإنه باعتبارِ أصله صفة ذاتية لأنّ الله -تعالىٰ- لم يَزَلْ ولا يزال متكلِّما، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعليّة لأنّ الكلام يتعلّق بمشيئة يتكلّم متىٰ

شاء بما شاء كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾[يس:٨٢]؛ وكلُّ صفة تعلّقت بمشيئته –تعالىٰ– فإنها تابعةٌ لحكمته، وقد تكون الحكمة معلومة لنا وقد نعجز عن إدراكها لكننا نعلم علم اليقين أنه –سبحانه– لا يشاء شيئا إلا وهو موافق للحكمة كما يُشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾[الإنسان:٣٠].

[الشرح]

فهٰذه القاعدة الخامسة تتعلق بالصفات الثبوتية، وأن الصفات الثبوتية تنقسم إلىٰ قسمين: ذاتية وفعلية؛ صفات ثبوتية ذاتية وصفات ثبوتية فعلية، وقد بيّن الشيخ –رحمه الله– حدّ كل قسم من هذين القسمين، قال: (**فالذاتية هي: التي لم يزل ولا يزال متّصفا بها**) هٰذا ضابط الصفات الفعلية التي لم يزل ولا يزال متصفا بها؛ يعني متصف بها في الأزل وفيما لم يزل، فهي صفات لا تنفك عن الذات، ولا تعلق لها بالمشيئة، وإنما هي صفات ملازمة للذات لا تنفك عن الذات، لا تعلق لها بالمشيئة، وذكر عليها أمثلة قال: (**كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعزّة، والحكمة، والعلو، والعظمة**؛) قال: (**ومنها: الصفات الخبرية: كالوجه واليدين والعينين.**) لاحظ في هٰذه الأمثلة التي ذكر لو تأملتها لوجدت أنها كلها لا تتعلق بالمشيئة، وإنما هي صفات متصف بها الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لا تنفك عن ذاته، لم يزل ولا يزال متصفا بها سبحانه، هل لليدان تعلق بالمشيئة، السميع، البصر، العلو، العلم، هٰذه كلها صفات ذاتية لا تعلق لها بالمشيئة، بينما الفعلية مثل الخلق إن شاء خلق وإن شاء لم يخلق، الاستواء، النزول، هٰذه الصفات تتعلق بالمشيئة.

أما الذاتية فهي التي لم يزل ولا يزال الرب –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– متصفا بها، ذكر عليها هٰذه الأمثلة ثم قال: (**ومنها: الصفات الخبرية**) هنا يشير الشيخ إلىٰ أن الصفات الذاتية منها صفات خبرية ومنها صفات عقلية.

العقلية جميع الأمثلة المتقدمة علىٰ قوله: (**ومنها: الصفات الخبرية**) صفات عقلية (**العلم والقدرة والسمع والبصر والعزة والحكمة والعلو والعظمة**) والمراد بوصفها بهذه الصفة –عقلية– أي أنها كما دل عليها السمع فإن العقل يدل عليها، ويُستدل عليها بالعقل كما أنه يستدل عليها بالسمع، ولهذا يقال في حق الصفات هٰذا النوع من الصفات: دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

العقل يدل علىٰ العلو، ويدل علىٰ العلم -علم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، ويدل علىٰ حكمته عظمته عزته بصره، كل هـٰذه صفات يدل عليها العقل كما أنه قد دل عليها السمع.

بينما الصفات الخبرية مثل الوجه واليدين والعينين والقدم ونحو هـٰذه الصفات فيقال عنها: صفات خبرية؛ لأنه لو لم يأت الخبر لما دل عليها عقل، ولا سبيل إلى معرفتها بالعقل كالوجه واليدين.

وهكذا أيضا في الصفات الفعلية: الاستواء، النزول، المجيء لفصل القضاء.. هـٰذه صفات خبرية؛ يعني لا سبيل إلىٰ معرفتها إلا من جهة الخبر.

بينما (الخلق) صفة فعلية هلا سبيل إلىٰ عرفتها إلا من جهة الخبر، أو أن وجود المخلوقات يدل علىٰ وجود خالق لها ومبدع؟ كما قيل لأعرابي: كيف بما عرفت ربك؟ قال: البعرة تدل علىٰ البعير، والخطوة تدل المسير، أفسماء ذات أبراج، وجبال ذات فجاج وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك علىٰ اللطيف الخبير.

فالخلق صفة فعلية؛ لكن يدل عليها العقل كما أن السمع يدل عليها؛ لكن من الصفات الفعلية ومن الصفات الذاتية ما لا يدل عليها إلا الخبر، ولهـٰذا ميزت عن غيرها بهـٰذا الوصف؛ أي: صفات خبرية، بمعنىٰ أنه لا سبيل إلىٰ معرفتها إلا من خلال الخبر.

قال: (**والفعلية هي: التي تتعلّق بمشيئته إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء علىٰ العرش، والنزول إلىٰ السماء الدنيا**.).

قال: (**وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام**) ، الكلام صفة:

ذاتية باعتبار أن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- لم يزل ولا يزال متصفا بالكلام.

وفعلية باعتبار آحاد الكلام بما شاء متىٰ شاء، تكلم بالتوراة، ثم تكلم بالإنجيل، ثم تكلم بالقرآن.

إذن باعتبار آحاد اللام هي صفة فعلية، وباعتبار أصل الكلام وجنسه فهي صفة ذاتية؛ لأن الله -عز وجل- لم يزل ولا يزال متكلما.

قال: (**فإنه باعتبارِ أصله صفة ذاتية لأنّ الله -تعالىٰ- لم يَزَلْ ولا يزال متكلِّما، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعليّة لأنّ الكلام يتعلّق بمشيئة يتكلّم متىٰ شاء بما شاء كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾[يس:٨٢]**)، ثم قال الشيخ: (**وكلٌّ صفة تعلّقت**

بمشيئته تعالىٰ فإنها تابعةٌ لحكمته) هـٰذه فائدة مهمة تتعلق بالصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة، فجميع الصفات الفعلية صادرة عن حكمة، ليس فيها ما هو صادر عن غير حكمة؛ بل كلها عن حكمة، والله -عز وجل- يفعل لحكمة، وقد ندرك بعض الحكم، وقد لا ندركها؛ لكن يجب أن نؤمن أن كل أفعاله صادرة عن حكمة، فهـٰذه فائدة ختم بها القاعدة تتعلق بالصفات الفعلية قال: (**وكلُّ صفة تعلّقت بمشيئته تعالىٰ فإنها تابعةٌ لحكمته، وقد تكون الحكمة معلومة لنا وقد نعجز عن إدراكها لكننا نعلم علم اليقين أنه سبحانه لا يشاء شيئا إلا وهو موافق للحكمة كما يُشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾[الإنسان:٣٠].**) الشاهد ﴿**إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ لما ذكر -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- مشيئته أعقب ذلك بذكر علمه وحكمته ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ وفي هـٰذا أن ما يشاؤه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- كله عن علم وحكمة.

[المتن]

القاعدة السادسة: يلزم في إثبات الصفات التخلّي عن محذورَيْن عظيمين: أحدهما: التمثيل، والثاني: التكييف:

فأما التمثيل فهو: اعتقاد المثبِت أنّ ما أثبته من صفات الله تعالىٰ مماثلٌ لصفات المخلوقين؛ وهـٰذا اعتقادٌ باطل بدليل السمع والعقل:

أما السمع فمنه قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧)﴾[النحل:١٧]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾[مريم:٦٥]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾[الإخلاص:٠٤].

[الشرح]

قال رحمه الله: (**القاعدة السادسة: يلزم في إثبات الصفات التخلّي عن محذورَيْن عظيمين: أحدهما: التمثيل، والثاني: التكييف**) قال هنا: (**يلزم في إثبات الصفات**) أي يلزم من يثبت الصفات لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أن يحذر من هذين الأمرين: التكييف والتمثيل و لم يذكر هنا التعطيل لأن المعطل لم يثبت وإنما نفىٰ، وكذلك المحرف لم يثبت وإنما نفىٰ.

فذكر هنا الحذر من التمثيل والتكييف؛ لأنهما يتعلقان بمن أثبت الصفات، بينما فيما يتعلق بالصفات عموما المحاذير التي تجتنب فيها أربعة: التعطيل، والتحريف، والتكييف، والتمثيل.

ولهـٰذا يقول أهل العلم في تعريف توحيد الأسماء والصفات هو: إثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. وهـٰذه محترزات ومحاذير يجب علىٰ المسلم أن يحذر من الوقوع فيها.

من أثبت الصفات لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- عليه أن يحذر من التمثيل، وكذلك أن يحذر من التكييف، والتمثيل هو أن يثبت لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- الصفات علىٰ وجه مماثل للمخلوقات، مثل ما قال الإمام أحمد: المشبه هو الذي يقول: يد كيدي وسمع كسمعي وبصر كبصري وإرادة كإرادتي. والله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]، فالمشبه هو الذي يثبت الصفة لله علىٰ وجه مماثل لصفة المخلوق، يد كيدي سمع كسمعي، بصر كبصري، وهكذا هـٰذا ممثل ويجب علىٰ من يثبت لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- الصفات أن يحذر غاية الحذر من التمثيل وأن يحذر كذلك من التكييف.

التكييف هو أن يثبت لله الصفات علىٰ كيفية يقدّرها في ذهنه، سواء كانت هـٰذه الكيفية التي يقدرها في ذهنه عن قياس لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بخلقه أو عن أمر يتصوّره هو ويقدره في ذهنه دون قياس بالخلق، ولهـٰذا المكيِّف الذي يجعل لصفة الله كيفية معينة تارة يكون ممثلا وتارة يكون مكيِّفا بلا تمثيل، كيف؟

إن جعل الكيفية التي لصفة الله ككيفية صفة المخلوق فإنه في هـٰذه الحال مكيف ممثل، اجتمع فيه تكييف وتمثيل.

وإن كان قد جعل صفة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في كيفيةٍ اخترعها في ذهنه هو، ولم يقصها علىٰ ما يراه في المخلوقات، وإنما تصور كيفية معينة وجعلها هي صفة الله يعني صفة الله هي الكيفية التي تصورها هو، فهو في هـٰذه الحالة مكيف وليس ممثل؛ لأنه لم يمثلّ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بمخلوق معين، ولأجل لهـٰذا قال العلماء: كل ممثل مكيف، وليس كل مكيف ممثلا.

كل ممثل مكيف، لماذا؟ لأن الممثل عندما قال: يدل الله كيدي، سمع الله كسمعي، بصر الله كبصري، تعالىٰ الله عما يقولون، هو في الوقت نفسه كيّف؛ لأنه جعل كيفية صفة الله ككيفية صفة المخلوق.

ولهـٰذا كل ممثل مكيف، الممثل في كل أحواله مكيف.

وليس كل مكيف ممثلا، لماذا ليس كل مكيف ممثلا؟ لأن المكيف في بعض أحواله يأتي بكيفية يقدرها في ذهنه لا عن قياس بالمخلوق، وحينئذ قال أهل العلم: كل ممثل مكيف وليس كل مكيف ممثلا.

علىٰ كل حال الأمران التمثيل والتكييف يجب الحذر منهما غاية الحذر عند إثبات الصفات، تثبت الصفات دون تمثيل، دون أن يمثل الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بخلقه، وأيضا تثبت الصفات دون تكييف؛ يعني دون أن يثبت صفة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- كيفية معينة لأننا لا نعلم كيفية صفات الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، وإثباتنا للصفات إثبات وجود، لا إثبات تكييف؛ لأن الله -عز وجل- أخبرنا بصفاته و لم يخبرنا بكيفية صفاته.

ولهٰذا لا سبيل للتكييف، ولهٰذا قال أيضا العلماء أمروها كما جاءت بلا تكييف. فالتكييف باطل.

الشيخ -رحمه الله- الآن بدأ يوضح ويبين ما يتعلق بهذين المحذورين قال: (**فأما التمثيل فهو: اعتقاد المثبِت أنّ ما أثبته من صفات الله تعالىٰ مماثل لصفات المخلوقين؛ وهٰذا اعتقادٌ باطل بدليل السمع والعقل**) ما هو التمثيل؟ اعتقاد المثبت أن ما أثبته لله من صفات مماثل لصفات المخلوقين، مثل ما ذكرت لكم قول الإمام أحمد في بيان ما هو التمثيل قال: أن يقول: يد كيدي، سمع كسمعي، بصر كبصري، هٰذا إثبات للصفات مع اعتقاد أنها مماثلة لصفات المخلوقين، هٰذا تمثيل باطل، يقول الشيخ -رحمه الله- دلّ النقل والعقل علىٰ بطلان التمثيل؛ أي دلّ النقل والعقل علىٰ أن التمثيل باطل.

(**أما السمع فمنه قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**[الشورى:١١]) فهٰذه الآية فيها نفي المثلية، فالله -عز وجل- لا مثل له في أي صفة من صفاته علىٰ ما سبق إيضاح ذلك وبيانه قريبا.

قال: (**وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧)﴾**[النحل:١٧]) وهٰذا أيضا فيه نفي المثل، فالله -جل وعلا- لا مثل له، وكيف يجعل من لا يخلق مثيلا للخالق؟ وشأن الخالق الكمال والعظمة، وشأن المخلوق النقص والضعف، فكيف يمثل الكامل بالناقص، أو أيضا العكس، فكيف يمثل الناقص بالكامل، هٰذا من أبطل الباطل، فهٰذا لا يشبه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بخلقه ولا يشبه به خلقه، ولهٰذا التشبيه نوعان:

تشبيه للخالق بالمخلوق.

وتشبيه للمخلوق بالخالق.

وكل من التشبيهين باطل، لا يشبه أحدا من خلقه، ولا يشبهه أحد من خلقه، فالتشبيه بنوعيه باطل، لا يقال في صفة الله أو في أي صفة من صفات الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: إنها كصفة المخلوق. ولا يقال في صفة من صفات المخلوق: إنها كصفة الخالق. هـٰذا باطل، ولهـٰذا عبّاد القبور الذين يغلون في من يعبدونهم ويدعونهم من دون الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- يلحقون بهم من الصفات ما لا يليق إلا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهـٰذا تشبيه للمخلوق بالخالق، وهـٰذا تشبيه باطل، فهو تشبيه للمخلوق بالخالق، بأن يعطي المخلوق شيئا من صفات الخالق -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، فيمدح المخلوق بما لا يليق إلا بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

مرة قرأت منظومة في مدح النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ- صدرت بقول ناظمها:

هـو الأول والآخـر محمـد		هـو الظـاهر والبـاطن محمـد

يمدح النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ-، فهـٰذا تشبيه للمخلوق بالخالق.

ومثلها أيضا قول الشاعر يمدح النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ- ويثني عليه:

يا أكرم الخلق مـا لي مـن ألـوذ بـه		سـواك عنـد حـدوث العمـم
وإن مـن جـودك الـدنيا وضـرتها		وإن من علومك علـم اللـوح والقلـم

هـٰذا فيه تشبيه للمخلوق بالخالق في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

في الألوهية في قوله: (ما لي من ألوذ به).

وفي الربوبية في قوله: (إن من جودك الدنيا وضرتها).

وفي الأسماء والصفات في قوله: (إن من علومك علم اللوح والقلم).

يقول ذلك في حق الرسول الكريم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ- أرأيتم لو أن البيت قيل هكذا يخاطب الله:

يا **خالق** الخلق مـا لي مـن ألـوذ بـه		سـواك عنـد حـدوث العمـم
وإن مـن جـودك الـدنيا وضـرتها		وإن من علومك علـم اللـوح والقلـم

فيكون هـٰذا البيت توحيد: توحيد في الألوهية، وتوحيد في الربوبية، وتوحيد في الأسماء، فإذا أعطيت هـٰذه المعاني التي هي توحيد لغير الله، فأبدل (يا خالق الخلق)، (يا أكرم الخلق) مخاطبا النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كيف ينعكس الكلام، وكيف يصبح إلىٰ مثل هـٰذا التشبيه الباطل، والنبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ- إنما جاء بأن يحارب التشبيه لا أن يشبّه هو -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ- بالخالق،

ولما سمع -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- امرأة تمدحه قالت: وفينا رسول الله يعلم ما في غد. غضب -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- أشد الغضب وقال: "**لا يعلم ما في غد إلا الله**"،[1] قالت: يعلم ما في غد. وهنا يقول الناظم: (وإن من علومك علم اللوح والقلم) يعني (من) للتبعيض بعض علومك علم اللوح والقلم، ما قال فقط: يعلم ما في غد. وإذا كان -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- غضب ممن قالت في حقه -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ-: إنه يعلم ما في غد. فكيف بمن وسع الأمر أكثر من هٰذا بكثير.

الشاهد أن التشبيه نوعان: تشبيه بالمخلوق بالخالق، وتشبيه بالخالق بالمخلوق. وكل منهما باطل.

قال: (**وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾**[مريم:٦٥]) هنا الاستفهام إنكاري، وهو بمعنىٰ النفي، والمعنىٰ لا سمي له. والسمي هو المثيل والنظير، فالله لا مثيل له ولا نظير. وكذلك قوله: (**وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾**[الإخلاص:٠٤]) فهٰذه الآيات ونظائرها هي أدلة نقلية صريحة الدلالة على بطلان التمثيل.

[المتن]

وأما العقل فمن وجوه:

الأول: أنه قد عُلم بالضرورة أن بين الخالق والمخلوق تبايُنا في الذات؛ وهٰذا يستلزم أن يكون بينهما تبايُن في الصفات؛ لأن صفة كلّ موصوف تليق به كما هو ظاهر في صفات المخلوقات المتباينة في الذوات فقوة البعير مثلاً غير قوّة الذَّرَّة؛ فإذا ظهر التبايُن بين المخلوقات مع اشتراكهما في الإمكان والحدوث فظهور التبايُن بينهما وبين الخالق أجلىٰ وأقوىٰ.

[الشرح]

هنا الشيخ -رحمه الله- بدأ يسوق بعض الأدلة العقلية التي تدلّ علىٰ بطلان التمثيل، وأن تمثيل الخالق بالمخلوق باطل، فذكر بعض الأدلة العقلية الدالة علىٰ ذلك من بين هٰذه الأدلة ما ذكره -رحمه الله- من أن العقل يدل علىٰ أن كل موصوف صفاته تليق به، والصفة تتبع الموصوف، وهٰذا أمر يشاهد في المخلوقات، ويرىٰ في المخلوقات.

---

[1] البخاري: كتاب المغازي، باب (١٢)، حديث رقم (٤٠٠١).

قد ذكرت قاعدة فيما سبق أن الإضافة تقتضي التخصيص، فالصفة بحسب من أضيفت إليه، إذا أضيفت إلىٰ الكامل كاملة، وإذا أضيفت إلىٰ الناقص ناقصة، إذا أضيفت إلىٰ القوي قوية، وإذا أضيفت إلىٰ الضعيف ضعيفة، هـٰذا أمر متقرر في العقول، وهو أمر مشاهد بين المخلوقات.

نقول: قوة الفيل، وقوة الأسد، وأيضا نقول: قوة النملة، النملة لها قوة تحمل بها الطعام، وتصعد بها الجدار، والفيل له قوة؛ لكن الصفة بحسب من أضيفت إليه، القوة التي في النملة تناسب ضعفها تناسب ضعفها؛ لكنها تسمىٰ قوة، والقوة التي في الفيل تناسب أيضا قوته وكبر جسمه، فاختلقت القوة، ولا يقال: يلزم من إثبات القوة للنملة أن تكون مماثلة لقوة الفيل، ما أحد يقول هـٰذا، لماذا لا أحد يقول ذلك؟ لأنه متقرر عقلا عند كل أحد أن الصفة بحسب من أضيفت إليه.

فإذا أضيفت إلىٰ الضعيف كانت ضعيفة، وإذا أضيفت إلىٰ القوي كانت قوية، فهي بحس من أضيفت إليه فإذا كان الأمر متقرر بين المخلوق وبين المخلوق، فكيف بالأمر بين الخالق والمخلوق، لاشك أنه من باب أولىٰ، هـٰذا دليل عقلي علىٰ بطلان التمثيل، قد علم بالضرورة أن بين الخالق والمخلوق تباينا في الذات، وهـٰذا يستلزم أن يكون بينهما تباينا في الصفات.

لماذا؟ لأن صفة كل موصوف تليق ب كما هو ظاهر ومثل الشيخ علىٰ ذلك بما يكون مخلوق ومخلوق.

وقوله -رحمه الله- في أثناء كلامه قوة البعير غير قوة الذَّرة، المراد بالذرة النملة، صغار النمل، يقال للواحدة: ذرة، وللجمع: ذر.

أما بمعنىٰ بضم الذال (قوة الذُّرة) هـٰذا لا يصح هنا، ولا يصلح أن يذكر معنىٰ لما أراده الشيخ رحمه الله.

[المتن]

الثاني: أن يقال: كيف يكون الرب الخالق الكامل من جميع الوجوه مشابها في صفاته للمخلوق المربوب الناقص المفتقر إلىٰ مَنْ يُكَمِّله، وهل اعتقاد ذلك إلا تنقُّصٌ لحق الخالق فإنّ تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصا.

[الشرح]

هـــٰذا وجه ثانٍ لإبطال التمثيل بأن يقال: كيف يكون الرب الخالق الكامل من جميع الوجـــوه مشابها في صفاته للمخلوق المربوب؟ المخلوق من شأنه النقص والضعف والحاجة إلىٰ من يكمله، فهو فقير من كل وجه والله -عز وجل- غني من كل وجه، فكيف يقال: إن صفات الخالق العظيم والرب الجليل الذي أوجد هـــٰذه المخلوقات مماثلا أو مشابها لها، هـــٰذا لا يمكن أن يقال، وكل عقل سليم يأبىٰ ذلك، وهـــٰذا وجه ثانٍ في دلالة العقل علىٰ بطلان التمثيل.

[المتن]

الثالث: أننا نشاهد في المخلوقات ما يتّفق في الأسماء ويختلف في الحقيقة والكيفية: فنشاهد أن للإنسان يدًا ليست كيد الفيل وله قوة ليست كقوة الجمل مع الاتّفاق في الاسم فهـــٰذه يـــد وهـــٰذه يد وهـــٰذه قوة وهـــٰذه قوة وبينهما تبايُنٌ في الكيفيّة والوصف فعُلم بذلك أن الاتّفاق في الاسم لا يلزم منه الاتّفاق في الحقيقة.

والتشبيه كالتمثيل؛ وقد يفرَّق بينهما بأن التمثيل: التسوية في كـــل الصـــفات، والتشـــبيه: التسوية في أكثر الصفات؛ لكن التعبير بنفي التمثيـــل أولىٰ لموافقـــة القـــرآن ﴿لَـــيْسَ كَمِثْلِـــهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١].

[الشرح]

قوله في ختام الوجه الثاني: **(فإنّ تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصا.)** هـــٰذا واضح، إذا شـــبه الكامل بالناقص، أو أراد مريد أن يمدح الكامل فقارنه بالناقص، مثل ما قال الشاعر:

ألم تـــر أن الســـيف يـــنقص قـــدره	إذا قلت أن السيف أمضىٰ مـــن العصـــا

إذا أراد أحد أن يمدح السيف وحدته فقال: السيف أمضىٰ من العصا. أصبح هـــٰذا الكلام إلىٰ الذم أقرب منه إلىٰ المدح، ولهـــٰذا لا يثنىٰ علىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ابتداءً أنه أكمل من خلقه أو أن صفاته أفضل من صفات خلقه، فإن هـــٰذا فيه تنقص إلا إذا كان المقام مقام رد مثل قوله: ﴿**أَفَمَـــن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧)**﴾[النحل:١٧]، ﴿**آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)**﴾[النمل:٥٩]، ونحو ذلك.

قال: **(الثالث)** أي الوجه الثالث **(أننا نشاهد في المخلوقات ما يتّفق في الأسمـــاء ويختلـــف في الحقيقة والكيفية)** وهـــٰذه قاعدة مفيدة في هـــٰذا الباب اتفاق الأسماء لا يلزم منه اتفـــاق الحقـــائق

والمسميات، فقد تكون الأسماء متفقة والحقائق مختلفة، قد تتفق الأسماء وتختلف الحقائق، هـذا بين مخلوق وبين مخلوق، الآن إذا قلت: رأس الإنسان، ورأس النملة، ورأس القلم، ورأس الجبل، ورأس الشجرة.. هـٰذه أسماء متفقة أو مختلفة؟ متفقة؛ لكن الحقيقة مختلفة، اختلفت لماذا الحقيقة؟ لأن الصفة بحسب من أضيفت إليه.

أيضا مثل ما تقول: وجه الإنسان، وجه الأسد، وجه النهار، وجه المسألة، المسألة وجهها كذا، الأسماء متفقة لكن الحقائق مختلفة، لم اختلفت الحقائق؟ لاختلاف المسميات، ولهـٰذا الأسماء بحسب من أضيفت إليه، والصفات بحسب من أضيفت إليه.

إذن من القواعد المتقرّرة أن اتفاق الأسماء لا يلزم منه اتفاق المسميات، هـٰذا بين مخلوق ومخلوق، كما هو واضح في الأمثلة التي أشرت إليها، فكيف بالأمر الذي بين المخلوق والخالق.

لو قال لكم قائل: يلزم من اتفاق الأسماء بين المخلوق والخالق التماثل. كيف تردون عليه عقلا علىٰ ضوء هـٰذا الوجه؟

يقال له: هـٰذا الذي تقوله لم يلزم بين مخلوق ومخلوق فكيف يكون لازما بين خالق ومخلوق، نحن نرىٰ في مخلوقات كثيرة أنها متفقة في الأسماء و لم يلزم من ذلك أن تكون متفقة في الحقائق والمسميات، فكيف يكون هـٰذا لازما بين الخالق والمخلوق، وهو لم يكن لازما بين مخلوق ومخلوق، وهـٰذا دليل عقلي واضح علىٰ بطلان التمثيل.

قال: (**أننا نشاهد في المخلوقات ما يتّفق في الأسماء ويختلف في الحقيقة والكيفية : فنشاهد أن للإنسان يدًا ليست كيد الفيل وله قوة ليست كقوة الجمل مع الاتّفاق في الاسم فهـٰذه يد وهـٰذه يد وهـٰذه قوة وهـٰذه قوة وبينهما تبايُنٌ في الكيفيّة والوصف فعُلم بذلك أنّ الاتّفاق في الاسم لا يلزم منه الاتّفاق في الحقيقة.**) وهـٰذا واضح كما هو في الأمثلة التي أشار إليها الشيخ.

والله تعالىٰ أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد. [1]

[1] انتهىٰ الشريط الثامن.

الفهرس

القاعدة الرابعة: الصفات الثبوتية صفات مدحٍ وكمال **٢**
حالات ذكر الصفات المنفية ٢
شرح القاعدة الرابعة **٢**
الأصل إجمال النفي وتفصيل الإثبات ٣
طريقة أهل الكلام في الإجمال والتفصيل أشبه للذم في مسألة الصفات ٤
أمثلة واقعية على ذلك ٤
نفي الصفات المنفية يتضمن الكمال والمدح ٤
يأتي النفي تفصيلا لبيان عموم كماله ٦
يأتي النفي مفصلا لنفي ما ادعاه الكاذبون **١٠**
يأتي النفي مفصلا لدفع توهم نقص **١٠**
القاعدة الخامسة: الصفات الثبوتية تنقسم إلىٰ قسمين: ذاتية وفعلية: **١١**
شرح القاعدة **١٢**
الصفات الذاتية ١٢
من الصفات الذاتية الصفات الخبرية ١٢
من الصفات الذاتية الصفات العقلية ١٢
الصفات الفعلية ١٣
الصفات الفعلية باعتبار والذاتية باعتبار **١٣**
القاعدة السادسة: يلزم في إثبات الصفات التخلِّي عن محذورَيْن عظيمين: أحدهما: التمثيل، والثاني: التكييف: **١٤**
نفي التمثيل بالسمع ١٤
شرح ذلك ١٤
معنى التكييف ١٥
شرح الدليل السمعي ١٦
الدليل العقلي على نفي التمثيل ١٨
شرح ذلك ١٨
الوجه الثاني في الأدلة العقلية ١٩
الوجه الثالث في الأدلة العقلية ٢٠
الفهرس **٢٢**